رواية (سفر برلك ودروب القفر) لسليمان قوابعة ورواية (سفر برلك - حكاية الفتى الخلاسي ذيب) لمقبول العلوي: دراسة مقارنة في البنية السردية

عبد السلام عبد الكريم أخو ارشيدة*

تاريخ وصول البحث: 2024/1/29م تاريخ قبول البحث: 2024/5/22م

الملخص

تهدف الدراسة إلى تناول حدث تاريخي بطريقة مقارنة بين روايتين. ويشير الحدث التاريخي (سفر برلك) إلى النفير العام الذي فرض في نهايات الدولة العثمانية، وتطرح الدراسة رؤية مؤلفين مختلفين تناولا الحدث التاريخي: رواية "سفر برلك ودروب القفر لسليمان قوابعة، ورواية "سفربرلك - حكاية الفتى الخلاسي ذيب " لمقبول العلوي، وتنطوي أحداث الروايتين على مواقف بطلين يتعرضان لمأزق الانخراط في سفر برلك، حيث يتبلور بناء الروايتين في ضوء الملابسات التاريخية بأسلوب فني سردي، واعتمدت الدراسة على الإفادة من المنهج المقارن من أجل الوصول إلى نتائجها التي أبرزت الطبيعة التاريخية للروايتين اللتين جعلتا من الخدمة العسكرية الإجبارية إبان الحكم العثماني منطلقا لها، ربطت الحدث التاريخي بشخصيتين محوريتين تتمثل فيهما السمات الاجتماعية والاقتصادية، وتفصيل ظروف الحياة العامة للمجتمعات العربية في تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: سفر برلك، الرواية التاريخية، القوابعة، العلوي.

* باحث.

and the Paths of the Wilderness" by Suleiman Qawabeh, and "Safar Berlak the novel "Safar Berlak - The Tale of the Khalasi Boy Theeb" by Maqbool Al-Comparative Study in narrative structure:Alaw

Abstract

The study aims to deal with a historical event in a comparative manner between two novels. The historical event (Safar Berlak) refers to the general mobilization that was imposed at the end of the Ottoman Empire, and the study presents the vision of two different authors who dealt with the historical event: the novel "Safar Berlak and the Paths of the Wilderness" by Suleiman Qawabeh, and the novel "Safar Berlak - The Tale of the Khalasi Boy Theeb" by Maqbool Al-Alawi. The events of the two novels are based on the positions of two heroes who are exposed to the dilemma of engaging in Berlak's journey, where the structure of the two novels crystallizes in the light of historical circumstances in a narrative artistic style. The study relied on the comparative approach in order to reach its results, which highlighted the historical nature of the two novels that made compulsory military service during the Ottoman rule their starting point. It linked the historical event to two pivotal figures represented by the social and economic characteristics and detailed the general life conditions of Arab societies in that period.

Key Words: Safr Berlak. Historical novel. Al-Qawabeh, Al-alawi

المقدمة:

الروايتان تدوران حول حدث تاريخي مفصلي كان له دور حاسم في مصير الشرق كله؛ بل على مستوى العالم ومستقبله كان البعد الإنساني شاهدا على الويلات التي تنتج عن الحروب، وما تنطوي عليه النفوس حين تستثيرها غريزة الصراع فتستيقظ نزعات الشر وتطغى على ما عداها، وقد قدمت لنا هاتان الروايتان وجهين قاتمين من وجوه هذه الحرب في البوادي والحضر وما أسفرت عنه من ندوب اجتماعية ونفسية وقد رأيت أن أقدم هذه الدراسة المختصرة مقارنا بين البنية السردية في كلتيهما ملما من خلال المنهج المقارن، والروايتان صدرتا في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين كان صدور الأولى منهما (رواية سليمان القوابعة) عام 2010 والثانية (رواية مقبول العلوي) عام 2019 ولم يظهر في الرواية الثانية أنه تأثر بالكاتب الأول، الرواية الأولى صدرت لكاتب أردني والثانية لكاتب سعودي، وهما تكشفان عن التضاريس السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة تحت حكم الدولة العثمانية.

حظيت الرواية التاريخية باهتمام نقدي وبحثي، قدم فيه الدارسون رؤيتهم السردية لبناء الرواية التاريخية بما تتضمنه من توازن بين فن السرد ووقائع التاريخ، وقد أخذت الفترة الزمنية للحكم العثماني والتركي مساحة من العمل الروائي التاريخي، رافقه بحث نقدي، ومن تلك الدراسات:

-دراسة طه الشبول بعنوان (الرواية التاريخية الشامية) [1]

حيث هدفت الدراسة إلى تتبع صورة الأتراك في روايات (سفر برلك ودروب القفر لسليمان قوابعة، ورواية مدارات الشرق لنبيل سليمان، ورواية دروز بلغراد لربيع جابر، ورواية راكب الريح ليحيى خلف)، اتبعت الدراسة المنهجية الوصفية التحليلية، حيث بينت الروايات بمجملها معظم السياسات التعسفية للحكومة التركية من مثل التجنيد الإجباري، وتفتت الدولة العثمانية، في حين ركزت رواية دروز بلغراد على الحرب الأهلية في جبل لبنان بين الدروز والمسيحيين عام 1860م ودور الحكومة التركية فيها.

- دراسة أسماء الأحمدي (2022) بعنوان (بنيات الحرب والمجاعة والوباء (قراءة في روايتي سفر برلك وقنص)[2]، هدفت الدراسة إلى الكشف عن قراءة الأبعاد الاجتماعية والتاريخية في روايتي سفر برلك وقنص، من خلال التركيز على بنيات المجاعة والوباء والحرب، اتبعت الدراسة المنهج البنيوي التكويني، حيث أظهرت نتائجها أنّ الخطاب الروائي تمكن من التعبير عن الظواهر المختلفة التي تبرز على سطح المجتمع؛ فنقله عبر الروايتين إلى عالم سردي يجمع بين لغة الواقع المعبر عنه

ولغة التخييل؛ بوصفه عملًا إبداعيًا قادرًا على معالجة قضايا واقعه، وتصوير ظواهره، ورصدها والكشف عن أسبابها.

-دراسة أسماء الزريقات وسالم الفقير (2023) بعنوان " دلالة المكان في سفر برلك ودروب القفر لسليمان قوابعة)[3]. تناولت الدراسة دلالة المكان، باعتباره المحرك لأحداث الرواية، واتبعت الدراسة منهجية وصفية تحليلية، حيث كشفت عن أن المكان حمل العديد من الدلالات التي عكست الحقبة التاريخية التي عاشتها الأمة العربية في بدايات القرن العشرين، وكشفت انفتاح النص الروائي على شعرية المكان، وتأثير ذلك على جذب القارئ وإشراكه في النص الروائي.

وتمضي الدراسة الحالية في ركب الدراسات النقدية للرواية التاريخية؛ لترفد تلك الدراسات بنظرة جديدة للحقبة العثمانية/التركية التي كان لها وجودها التاريخي زمانًا ومكانًا، وتضيف هذه الدراسة منهجًا خاصًا بها في تبني منطق المقارنة بين روايتين تعرضان الموقف التاريخي بآليات سردية تتوافق مع رؤية الكاتب الخاصة، ولعل ذلك ما يمنح الدراسة تميزها وتفردها عن غيرها من الدراسات المهتمة بالرواية التاريخية.

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد عملت فيه على تحرير المصطلحات الواردة في العنوان؛ ومبحثين: تناولت في الأول منهما البنية السردية في رواية القوابعة وفي الثاني درست البنية السردية في رواية العلوي مقارنا بينها وبين رواية القوابعة، ثم انتهيت إلى خاتمة سجلت فيها أبرز النتائج التي خلصت إليها.

تمهيد: المصطلح والمفهوم:

تمثل الرواية بشكل عام "تاريخ متخيل داخل التاريخ الموضوعي"[4]، يمكن التماس الخيط الذي يشدها إلى التاريخ، عبر اشتراكهما بالعناصر الرئيسة: الإنسان، والزمان، والمكان، وأكثر اشتراكهما بالقصة أو الطابع القصصي، حيث التاريخ نوع من الرواية " القص" لأحداث وقعت في الماضي ونمط من الحكي عن الأشخاص والظواهر الاجتماعية بكل تجلياتها، فالرواية تسجيل تاريخي أدبي للظواهر الاجتماعية والتاريخية التي تحمل دلالات متنوعة[5].

وتعبّر الرواية التاريخية عن مصطلح مرن أصبح مفهومه ينسحب على كل عمل روائي يقارب التاريخ أحداثاً و شخصيات و مناخات ورؤى أياً كان لون هذه المقاربة إسقاطا أو تمثلاً أو تعليماً أو ترميزاً أو موازاة أو تناصاً؛ ولذلك كان لا بد من الرجوع إلى المرجعيات التي سبقت إلى التنظير لهذا اللون الأدبي، وربما كان جورج لوكاش George Lucas من الأوائل الذين ألفوا في هذا المجال

خصوص في كتابه (الرواية التاريخية) Historical Novel حيث يصف الرواية التاريخية بأنها " رواية تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات"[6] غير أننا يمكن أن نتبيّن خصائص الرواية التاريخية لدى من اهتموا بتعريفها من المنظرين لها على هذا النحو:

أولاً - النظر إلى المادة التاريخية التي تستثمرها الرواية بوصفها جزءاً من تكوينهم الذي هم عليه، وفهمه يساعدهم على فهم أنفسهم، وهنا ينظر إلى الهدف منها.

ثانياً – إعادة تشكيل المادة التاريخية عبر الخيال والتصرّف بها وفقا لرؤية الكاتب، لذا يتم فهمها وفقا لأسلوب الصياغة والتشكيل.

ثالثاً – بناء الشخصية الروائية في ضوء الملابسات التاريخية التي أحاطت بها وأسهمت في بلورتها فيتداخل الفن مع الحقائق التاريخية لتتشكل رؤية الواقع.

رابعاً - الوصف الدقيق لحياة الأجيال الماضية وإعادة تركيب الحياة في فترة من فترات التاريخ حيث تبدو أقرب إلى السيرة[7].

ولعل ما قدمته الروايتان ينسجم مع هذه الرؤية، حيث يعمد الكاتبان إلى وصف الحياة في ظل الحدث التاريخي (سفر برلك) فقد أعادا تشكيل الحياة وفقا لرؤية الكاتبين، وكان للخيال دوره في إعادة صياغة الوقائع، فضلاً عن النظر للسيرورة التاريخيّة بوصفها وحدة متصلة، الحاضر في جدل متّصل مع الماضي، يعيد إنتاجه وتحليله فضلاً عن القيمة التوثيقية للحظة التاريخية على عمق دلالتها الإنسانية كما سيتضح من خلال التحليل.

المبحث الأول:

البنية السردية في رو اية سليمان قو ابعة:

البنية تعني النظام المتسق الذي تتحدّد فيه علاقة أجزائه في مجموعة منتظمة من الوحدات، ذات علاقة تبادلية، فهي إذن عبارة عن نظام يتكون من أجزاء ووحدات متماسكة، بحيث يتحدد كل جزء بعلاقته مع الأجزاء الأخرى[8]

والبنية السردية تعني - هنا - شبكة العلاقات بين عناصر السرد: الشخصيات والأحداث والزمان والفضاء الروائي، وليس من شك في أن كلتا الروايتين يتّكئ في عنصر التشخيص على ما يعرف في تقاليد السرد بالبطل أي (الشخصية المحورية التي تتمركز حولها العناصر السردية الأخرى، وهو مؤشر مبدئي على التوجّه السّردي التقليدي المعروف في الرواية الواقعية والرواية التاريخية التي تنهض على نسيج من العلاقات تسخّر فيها سائر عناصر البنية الروائية لتجلية الثيمة الرئيسة المتعلقة بالحدث التاريخي الذي يتشكل في محيطه بطل الرواية[9].

وكما هو معروف فإن البطل في الرواية التاريخية يتحوّل إلى نموذج يمثل شريحة اجتماعية بخصائصها الجوهرية و بتفاصيل ذات خصوصية تجعل منه عنصراً متميّزا عن غيره، والبطل النموذج في رواية القوابعة (علي الرضي) يعايش فضاءً مكانيّاً يقع على حافة المفارقة بين عالمه الصحراوي الفسيح ملجاً وملاذاً والمحاصر وحشةً ورعباً وخوفاً، وهو يمثل الفضاء المكاني بأبعاده المتميّزة ما يكفل للشخصية بُعداً خاصاً يؤثر في سلوكه وسيرورة حياته، ويجلو الفضاء الزمني مُمثلاً في الحقبة التاريخية التي نمت فيها شخصيته وتشكّل فيها مأزقه الوجودي، حيث يتحوّل المنعطف التاريخي إلى أزمة وجودية صنعته لحظات زمنية شكلت تحوّلا مهماً في حياة المنطقة بكاملها. والبطل الذي يحمل بعض ملامح البطولة الملحمية، وكذلك البطولة التراجيدية التي أبقت الشخصية الرئيسة (علي الرضا) عارياً إلا من صراعه الدؤوب مع عالمه الموحش، يذرع الصحراء بحثاً عن المجهول وعن مأمن من سطوة البطش الذي واجه به (جمال باشا السفّاح) الحركة القومية التي أفرزتها ظروف المرحلة وبلغت ذروتها في تنفيذ الإعدام بكوكبة من الثوار العرب، الأمر الذي بدا قطيعة تاريخيّةً مع تاريخ ممتد من الهيمنة استمرّ لقرون طويلة، فـ (علي الرضي) بطل رواية القوابعة يدير حواراً داخلياً في مناجاة للذات عبر مشواره الطويل في متاهة الصحراء التي فرّ إليها من أتون الموت لائذاً بها من مأزقه الذاتي لتكون سجنا متّسع الأرجاء في مقابل السجن المنتظر الذي قد يضيق ليصل به إلى دائرة الموت، الصراع الذي يبدو أقرب إلى (المونودراما) الذي يعني صراعا ذاتيا متفردا في بعض جوانبه يستغرق المسافة الزمنية من بداية الرواية إلى آخرها بوصفها نصاً سرديا محكيًا؛ ولكنّها تظل مشرعة بلا نهاية باعتبارها خطاباً يحمل رؤية لمرحلة بدت مطلة على احتمالات متعدّدة.[10]

يُذكّر موقف على الرضا(بالشنفرى) الشاعر الجاهلي الذي فرّ من ظلم الأقربين إلى عالم الوحوش الذي وجده أكثر رحابة من دنيا البشر، وهذا يترجم واقعاً عاشه بطل الرواية، فهو يبحث عن حريته في ملاذ آمن يخلّصه من الرعب الذي بات يطبق على المنطقة برمتها ، لقد كان وريثاً لمصير والده، فقد ذهب ولم يعثر له على أثر، ولاذ - بحذر شديد بكائنات الصحراء التي كان لا يأمن غدرها، ويتبدى الحدث هنا نتاجا لعوامل تتصل بالمحيط الزمني والمكاني و الفضاء التاريخي بشكل عام ويكون نسيجا منجزا عبر الصراع الذي أفرزته تلك الحقبة مُمثلاً في الحرب الضروس التي اشتعلت على مستوى الكون، وكان الحيز المكاني جغرافياً ميدانها الأشدّ ضراوة، ولم تكن الصحراء التي هام فيها (علي الرضا) بمأمن من الخطر، بل بدت ذات نصيب وافر من

الخطر الداهم الذي تشكّل في الأفق بكافة أبعاده حيث المفارقة التي تجمع النقيضين الخطر والملاذ[11] ، والبحث عن الأب المفقود والضياع في التيه فقد كان العثمانيون يرسلون رجالهم باحثين في عمق الصحراء ومضارب القبائل عمن يتهربون من الخدمة العسكرية الإلزامية بعد إعلان النفير العام الذي عرف بهذا الاسم (سفر برلك) تستكنّ فيه مشاهد الدم والجوع والموت، وقد بدت ملامح البطولة الملحمية في تشكيل شخصية (على الرضي) في رفضه واقع الذل وانصرافه للصراع مع فضائه الصحراوي في بحثه الدؤوب عن أبيه الغائب، لقد كان لقاؤه بالشيخ العجوز وهو رجل في نهاية العمر ينشد القصيد في الصحراء ممزوجاً بدموعه وإن سألك عني من الحي وداد قل له كفيت الشر، قل له كفيت الشر، حالي زريّة، وإن سألك من الحيّ حسّاد قل له شديد الحيل على معنقيه "[12].

هنا تتبدّى الروح الملحمية في ملامحها البطولية وموقفها التاريخي الذي يصارع من أجل الخلاص، وهذا الشيخ العجوز يمثل بعداً آخر من أبعاد هذه البطولة في الرواية، فعلى الرغم من كل مظاهر الانهيار من حوله يجهد في مواصلة الصمود ومجاهدة الذل، فهو فارس منتش بروح المصارع الذي يأبى الاستسلام، وجه آخر لبطل الرواية على الرضي، شاب لائذ بالصحراء اختار عالمه الوحشي بما ينطوي عليه من خوف ورعب، بعيداً عن عالمه الآخر الذي يصارع به عدوّا أشدّ بأساً من حيوانات الصحراء، فهو مجاهد فرّ من مغالبة عدوّ إلى مقارعة عدو آخر فامتلك حرية الاختيار، وشيخ صامد يقاوم الوهن باللوذ إلى حصن الصمود وذكريات الماضي: طرفان يلوذ أحدهما بالآخر، وجهان لحقيقة واحدة، حيث يقول الشيخ "أتعبني المحراث وخفّ النظر عندي، عساكر العصملي لقطوا الرجال، ولدي منهم، وما بقي غير الحريم و المريض والعاجز مثلي، وأنا اليوم أطلب نخوتك"[13].

تبدو المفارقة في موقف على الرضا التي تجمع نقيضين على صعيد واحد ماثلة في أمرين: الهرب من بطش العساكر العثمانيين الذين فتكوا بأسرته فقبضوا على والده الذي لا يَعرف له مصيرا (الأصل والمحتد) وسبوا أخته (العرض والشرف) وقد اختار الكاتب لها اسم (ساجدة) بما يوحي به من خضوع وخشوع وتقوى، لم يكن ملاذه في الصحراء آمنا، فقد كان عرضة لفريقين من الأشرار: وحوش البرّية من الحيوان من ناحية، وقطّاع الطرق ولصوص الفيافي من ناحية أخرى. ولكنّه يجد بغيته في واحة أمّنته من هلاك منتظر بعد أن أعيته الحيلة في العثور على شقيقته المسبية ووالده الأسير، وذلك في حمى شيخ من شيوخ القبائل هو(الشيخ حمد بن مصلح) الذي وفّر له الأمن الجسدي والأمن النفسي؛ فكان أن امتلأ فراغ قلبه بعشق (صفيّة) ابنة الشيخ،

وهنا يستردّ على الرّضي صوته فيغرق في مناجياته العاطفية و تنتقل بؤرة السرد إلى لسان البطل : " ردّي جدائلك الملقية يا صفيّة كي لا أراها واخفضي للمتعب جناحا من فيضك ورقتك النبيلة لو كان عندي أهل وشيء من الرضا في هذا الخلاء المنسي لهيّأت نفسي لك وحدك"[14].

لعل اختيار الراوي لاسم بطله يبدو شديد الدلالة فهو (علي الرضى بن عبد الله الشاهد) وعلي الرضي بإيحاءاته الدينية والمذهبية واتساع المدى فيه للتأويل يلقي الضوء على رؤية الكاتب فالعلو والرضا من جانب، والعبودية لله و الشهادة له من جانب آخر، تحمل في طياتها معاني السكينة و التقوى والاستشهاد والشهادة على عصر من الظلم و الظلام، وهذا يتسق مع الاسم الذي اختاره الكاتب لشقيقة علي، وهو (ساجدة) التي تحمل بدورها إيحاءات روحية؛ فالسجود منتهى الخضوع الله في مقابل الذُّل والانكسار الذي وقعت بين براثنه ساجدة حينما سباها جند الأتراك فعادت تحمل سفاحاً.[15]

تلك الفجيعة التي في طياتها ملامح مأساة تراجيدية، لقد انهار كل شيء الشرف والمروءة والأرومة فبدت رحلة الهوان بلا نهاية وضاعت صرخة البطل: "أين أنت يا عبد الله الشاهد، أشجار طلح وغضا ونخيل ودروب صحراء الرمل تتوالى وأسراب طيور وراحلتي يواجهها ظمأ القفار وقلة المؤونة فالمسار يبدو بعيدًا" [16].

عبد الله، هذا الاسم الذي يفصح عن العبودية لله سبحانه وتعالى وينطوي على الإنكار لكل أنواع العبودية للطواغيت؛ وأما لقب الشاهد فيشير إلى الشهادة على ما ارتكبته عصابات القتل والدمار في تلك الحقبة المظلمة من التاريخ، وهذه العلامات اللغوية تختزل كثيرا من المعاني التي انطوت عليها الرواية. البعد التاريخي للرواية تؤطره أحداث الحرب العالمية الأولى، فقد كانت (جمعية الاتحاد والترقي) قد هيمنت على الحكم في تركيا بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني، والفضاء المكاني في الرواية ممتد ما بين المدينة المنوّرة بما فيها وادي العقيق وقفار جنوب الأردن وشماله ووسطه إلى بر الشام وحتى الحدود التركية.

الوسط البشري للرواية جماعات من صعاليك وغزاة يجوبون الصحراء فُتّاكا ولصوص وقتلة، وفلاحين وعسكر وحجاج ومعتمرين وقبائل تخيم في مضاربها المتنقلة في جنبات الصحراء بحثاً عن مصادر العيش ومظانّ الرزق تطاردهم السلطات العثمانية لتصطاد رجالهم، وتزج بهم في محرقة الحرب يخوضون صراعاً بطولياً مع قسوة الصحراء و(عساكر العصملي) ومخاتلة المواسم.[17]

لعل أبرز ما يتصف به بطل سليمان القوابعة هو السير في الفيافي هرباً، و كأنه رحالة بحاثة عن ملجأ وليس مستكشفاً طالباً المعرفة، فهو في رحلته أشبه بالشاعر (الشنفرى) الذي يلوذ بالوحوش ينشد الأمن والأمان لدى ذئاب الصحراء عوضاً عن البشر الذين خذلوه و غدروا به، إنه في رحلة التيه هذه ينشد الأمن والأمان هرباً من الطغيان، ولكنه يمتلك رغبة الرّحالة في الكشف؛ بل عن الأصل المفقود يحتذي نهجه و يتتبع خطاه، ولكنه بدلا من أن يعثر على أبيه يعثر على النظير الذي وفر له شيئا من الأمان "يا ولدي تعال أتعبني المحراث وحداني خف النظر عندي، عساكر العصملي لقطوا الرجال، ولدي منهم وما بقي غير الحريم والمريض والعاجز، مثلي وأنا اليتيم يا هداك الله أطلب نخوتك"[18].

شيخ كسير الخاطر يشعر بالثقل بعد أن اقتاد عساكر العصملي ولده، وشاب يتيم فقد والده وافتقد شقيقته وانتهكت حرماته وتلم شرفه بفعلهم ، لقد التأم شمله البديل عما تشتّت منه، ووجد عوضاً عن شقيقته من تشغله عنها ولو إلى حين ممثلة في (صفية) ابنة الشيخ (حمد بن مصلح)، وألقى الفتى عصا الترحال وأوى إلى ركن شديد، فقد وجد ضالته؛ ولكن الفتى يظل مسكوناً بهمومه التي تصرفه عن عشقه الجديد فيحتدم داخله الصراع بين طارئ جديد ووهم متجذر عميق، إذ يقول: " جميلة تتأنق وهي تواجه إطلالة الشمس فأسكت دواخلي وإن استيقظت الأشواق، ردي جدائلك الملقية يا صفية كي لا أراها ، واخفضي للمتعب جناحا من فيضك ورقتك النبيلة لو كان عندي أهل وشيء من الرضا في هذا الخلاء المتسع لهيأت نفسي لك وحدك "[19]

المبحث الثاني:

بنية السرد في رو اية مقبول العلوي:

في مقابل الرضي بطل رواية سليمان قوابعة تبرز شخصية الفتى (ذيب) في رواية مقبول العلوي الذي يشترك معه في مأساة الأب على نحو لافت، وإن كان مرض الأب فيما يتعلق برواية العلوي خارج السياق الروائي فقد أصيب بالجدري نتيجة كونه مطوّفا للحجاج[20]، وليس بسبب الوضع السائد إبان (سفر برلك) وإن كان هذا المرض غير منبت الصلة تماما عن الأوضاع البائسة التي خلفتها الحرب الضروس وصرفت النظر عما عداها، فانتشرت الأوبئة في تلك البيئة التي عمها الطغيان واستبد بها الفقر والفاقة وغابت عنها مقومات الحياة وتوارت كل أشكال الرعاية الصحية، في حين كانت مأساة الأب في رواية قوابعة في صميم السياق السياسي والعسكري الذي ساد إبان محنة سفر برلك، من هنا فإن بداية تشكّل شخصية بطل الرواية يختلف بين الروايتين

من حيث المظهر الخارجي في إطار البنية السطحية؛ ولكنهما يلتقيان في العمق منها؛ فكلاهما ضحية لأوضاع إنسانية شاذة وبائسة صنعتها تلك الحقبة التاريخية بطواغيتها وغياب الأفق الإنساني عنها، فالرضي يبحث عن الأب الضائع المختطف الذي يذكرنا برواية نجيب محفوظ التي يبحث فيها عن الأب الذي يمثل في حقيقة الأمر البحث عن الذات في روايته (الطريق) [21]ذلك الأب الذي تركه في رعاية أم فاسدة تكافئ على نحو أو آخر المحيط الإنساني الشائه الذي ترك فيه بطلا الروايتين، وأما الرضي فيبحث عن المصير الذي آل إليه في حين وقع ذيب في شرك الصراع المباشر مع عساكر العصملي فكان في صميم المحرقة.

من هنا فإن البطلين يشتركان في نسق السرد السيري لحياتهما، وكانت المحطات المكانية التي تمثل قواقع مغلقة، ما إن يخرج من إحداها حتي يدخل في التي تليها عبر محطات الأسر، حيث انتهى إلى سوق العبيد ليباع بثمن بخس، ولكن يشاء الله أن يجد الخلاص على يد الشيخ الوجيه عبد الرحمن الذي غيّر مسيرة حياته بالكامل وانتهى به إلى مكتبة عارف حكمت[22] [15] في حين ظل بطل القوابعة (علي الرضي) في الصحراء خارج القوقعات المكانية فلم تكن عوامل نمو الشخصية مكانية كما هي الحال لدى القوابعة، بل كانت المرأة حيث كان لقاؤه بابنة شيخ القبيلة نقطة تحوّل مفصلية في حياته بينما كان لقاء ذيب ب (زمردة) الجارية حدثاً عابراً في حياة ذيب.

والمرأة لم تكن غائبة عن حياة الفتى الخلاسي بطل رواية العلوي؛ بل ظلت حاضرة، ومثلت بابا من أبواب الخلاص من الشرنقة التي أحاطت به؛ ولكن الخلاسي التقى بها في وضع مريح بعد أن انفكت عقدة الحصار، فوجد في كنف الشيخ عبد الرحمن ما يجعله في مأمن؛ أما علي الرضي في رواية القوابعة فقد كانت بابا مشرعا من أبواب الخلاص الرئيسة التي عوّضته عن فقد الأب والأخت، وفي كلتا الروايتين تنهض المرأة بدور في فك الحصار النفسي عن كل منهما.

الفتى الخلاسي ذيب بطل رواية مقبول العلوي تم اختطافه قسراً في حين كان علي الرضي بطل رواية قوابعة قد تاه في الصحراء فاراً من عسف العسكر العثمانيين، وقد تتبعه الكاتب - فيما يبدو نهجاً سيريّاً يتعلق مع السرد الرحلي والتدوين التاريخي - من لحظة اختطافه في بطحاء مكة حتى وفاته عام 1955م[23]، ودفنه في مقبرة المعلاة بالقرب من الحرم المكي، كلاهما كان فضاؤه الروائي الصحراء (الرضي لدى قوابعة و ذيب عند العلوي)، بينما كان الرضي قد فرّ إلى الصحراء بحثاً عن النجاة، أما ذيب فقد انتزع من الصحراء في حركة عكسية، لقد أُذيب وبيع في سوق الرقيق، ثم نال حريته وسافر قسراً إلى دمشق وعاد إلى الصحراء ثانية إلى مضارب أهله.

مسيرة البطلين في الروايتين متعاكسة؛ فذيب بدأت رحلته بالعبودية وانتهت بالحرّية على عكس علي الرضي فقد عانى من الانتقال إلى الدونية في الدرجة حين كان مع رفاقه المختطفين الخمسة يركبون الحمير، في حين كان مختطفوهم يركبون الخيل والجمال، وكان علي الرضي ينتقل من الهيام في الصحراء والتشرد فراراً من العبودية والمذلة حرا طليقا على الرغم من معاناته التيه والضياع في الصحراء هائماً على وجهه إلى كنف الشيخ الذي أحب ابنته، في مقابل الأب المختطف.

في الرواية الأولى كان الخال (مانع) هارباً أو أسيراً أو مقتولاً، وكان وجوده في الصحراء حفاظاً على الوالد المصاب بالجدري الذي ظلّ في رعاية الأم تنشد له هواء نقياً في الصحراء، لعل الهواء الجاف يشفي البثور التي استنبتها مرضه فشوّه حياته كلها، لقد تشكلت شخصية البطل في رواية العلوي عبر التنقل بين أماكن مختلفة، تنفتح حيناً وتنغلق أغلب الأحيان إلى أن تنتهي إلى فضاء الصحراء الفسيح الذي يكافئ الحرية التي نالها أخيراً.

كلاهما تهيّأت له أسباب الخلاص عبر شخصيتين خيّرتين صدفة ودون قصد، فالشيخ عبد الرحمن المدني الرجل المثقف الواعي يقول:" لا أريد عبداً في بيتي ولا جارية، فكل من بهذا المنزل هم بمكانة أبنائي وأتعامل معهم بهذا المفهوم[24] " والعلوي يجعل من الشيخ عبد الرحمن موازياً في موقفه من ذيب حين يحرص على التوسع في استقصاء جوانب من حياته لا علاقة لها بذيب الشخصية المحورية في الرواية، فيتحدث عن زوجته التي ماتت قبل ثلاث سنوات، وعن ابنته المتزوجة التي تعيش مع زوجها في جدة وابنه الذي يواصل تعليمه في مصر.

وهكذا تتبدّى الأساليب السردية التي لجأ إليها الكاتب في بناء الشخصية الرئيسية في الرواية، وهي شخصية (ذيب)؛ فأما الوسيلة الأولى فهي توظيف النّقلات المكانية في تنمية الشخصية وتطوّرها، بالتوازي مع التحولات الزمنية في خط أفقي يتحوّل إلى منحنى حلزوني أحياناً، حين يلجأ إلى الاسترجاع الخارجي فيما يتعلق بوالده الذي أصيب بوباء الجدري نتيجة لمخالطته للوافدين من الزوار والمعتمرين، ويبدو واضحا أن التطور الزمني التاريخي يتقاطع فيه العام والخاص؛ الوقائع التي تتعلق ب(سفر برلك) هي، التي تهيمن على حركة الشخصية وتحدد مسارها، الاختطاف الذي بدأت به الأحداث المتصلة بالشخصية كان نتيجة تلقائية لما ساد في تلك المرحلة التاريخية من فوضى وانعدام الأمن وانتشار العصابات واستغلال الجند لنفوذهم في ظل هيمنة العسكر وإطلاق أيديهم للعبث بحياة الناس وأقدارهم، والعصابات التي تنتشر في طول البلاد وعرضها، وانتشار أسواق النخاسة والإتجار بالبشر، حيث سوق العبيد الذي شرّعته السلطة

الحاكمة. لقد بدا واضحا أن نمو الشخصية يغلب عليه التحوّلات في خط زمني أفقي بشكل عام عبر جديلة ومكانية؛ بمعنى أن التوازي بين التحرك المرسوم من مكان إلى مكان هو الذي يحدو نموّ الشخصية، فمن الصحراء إلى المدينة إلى مكة إلى جدة وما يقع بينها من أمكنة تتنقل عبرها الشخصية تحكم مسيرها ومصيرها، وكذلك الرحلة من المدينة إلى الشام إلى استنبول، ناهيك عن محطات القطار والأماكن الفردية، وللقطار ووسائل النقل الأخرى سواء مشياً على الأقدام أو على ظهور الدواب أو المواصلات، هذه الوسائل تنهض بدور مهم في بناء الشخصية وتسليط الضوء على بنيتها الاجتماعية والنفسية، فركوب المخطوفين - ومنهم ديب - على الحمير يعبر عن درجة الاحتقار التي ينظر بها المختطفون إلى ضحاياهم، كذلك فإن القطار الذي يحتشد بالركاب المهجرين قسراً من المدينة يوضح المصير الجماعي الذي يتساوى فيه ديب مع الآخرين في البلاء الذي نزل بهم، ويعرفه على الشخصيات التي قامت بدور مؤثر في حياته ومصيره.

الأماكن التي وجد (ذيب) [25] فيها نفسه محاصراً، وهي مغلقة كالسجون والبيوت وعربات القطار حيث المهانة والذل - وإن كان بعضها على نقيض ذلك. مثل بيت الوجيه المدني الشيخ عبد الرحمن رمز التحرّر وعنوان الكرامة، ومكتبة عارف حكمت رمز المعرفة والثقافة، أما الأماكن المفتوحة، مثل الصحراء والطرقات الطويلة فهي عنوان الاختطاف والرعب والخوف والافتقاد الكامل لإنسانية البشر، على نحو ما حدث للطفل (فارس) الذي اختطف وانتهك جسده، وذبح ودفن بلا كفن أو صلاة أو لحد من قبل العصابة التي اختطفت ذيب ورفاقه، وقد وظف الكاتب عناصر كثيرة للإيحاء بما حدث لبطله من خلال وصف الطعام الذي تمثل في العدس الأسود والبصل.

إن أهم ما يميّز النهج الذي التزم به الكاتب في بناء شخصيته يتمثل في الربط بين المصائر الفردية والجماعية التي تسلط الضوء على تلك الحقبة التاريخيّة المظلمة، فمسيرة البطل منذ اختطافه يلاقيها رفاقه ونظراؤه نتيجة عسف السلطات العثمانية في تلك الحقبة الخطف والمهانة والاسترقاق، كل ذلكم لم يكن مقصوراً على بطل الرواية، بل يشارك فيه غيره بخلاف ما نجده قي الرواية الأخرى فقد كان (علي الرضي) ذا تجربة خاصة في الأغلب الأعم يحرص الكاتب أن يكل إليه مهمة تخصه دون غيره؛ فهو جاد في البحث عن أبيه.

أما التجربة الجماعية فتتمثل في مرحلة الاختطاف والسفر وسوق العبيد، وهي مراحل ذات صبغة اجتماعية سياسية تكشف عن طبيعة المرحلة وتتسم بالطابع التوثيقي، وهو لون من

ألوان التأريخ الذي يقع على هامش المرحلة، وهو المادة الأكثر ملاءمة للعمل الفني الروائي، في عالمها تتشكل مصائر الأفراد فضلاً عن مصائر الأمم، وقد عني بها الكاتب عناية واضحة لأنها تشكّل الفضاء الروائي للسرد، وقد كان الربط بين تطور شخصية (ذيب) وبين المحطات المكانية ينطوي على توليد شخصيات جديدة تساعد في تطوره ومن الأمثلة على ذلك لقاؤه في سوق العبيد بالشيخ عبد الرحمن ودخول الجارية على خط حياته في بيت الشيخ عبد الرحمن، وكذلك تعرفه في القطار على شخصيات جدد، فذيب الذي وقع في أسر الجنود الأتراك ورحل شأنه شأن أبناء المدينة المنورة إلى دمشق ، فنحن في رواية العلوي أمام سيرة وتتنكب التقنيات الجديدة في الرواية المعاصرة متوسّلاً بالتنامي السردي الأفقي محتفلاً بالحكاية في تواصلها السردي عبر الزمن التاريخي، ولكنها في التشخيص تختص بالخلاسيين ذوي البشرة السمراء لبيعهم في المدن بعد تبديل أسمائهم بأخرى تلائم تجارة الرقيق وتقاليدها في تمييز عنصري واضح، وهو في بنيته السردية يسلك سبيل الرحالة الذي يهتم بالوعاء المكاني وخصائصه وسماته في تعالقه مع الزمنية التي تبدأ عام 1915 مع بدايات الحرب العالمية الأولى، وإرهاصات النهاية بالنسبة للدولة العجوز التي تكأكأت عليها الأمم لتنهي عصراً طال لقرون عدّة.

يتميز فضاء هذه الرواية بالثراء من حيث زخم الأحداث والوقائع على المستوى الذاتي والجماعي، فنحن أمام وصف دقيق للأحداث التاريخية؛ وخصوصاً الصراع بين الشريف حسين بن علي قائد الثورة العربية الكبرى والعثمانيين ورحلة الأسر التي عانى منها ذيب بطل الرواية التي دوّن فيها أحداثا. مرعبة قاسية تخلو من الحس الإنساني حيث سبي الأم ومنعها من اصطحاب ابنتها حديثة الولادة، وسرقة خزائن الكتب من مكتبة عارف بالمدينة المنورة.

لقد اصطنع الراوي ضمير الأنا السرد الذاتي ليقدم لنا المادة القصصية في مبناها الحكائي الذي يوازي المتن الحكائي الأصل، ولكنّه نوّع في عملية (التبئير) فروى جزءاً يسيراً من الرواية على لسان الأم، وكذلك انتقل إلى ضمير الغائب في تسجيله لموقف فخري باشا، حيث أرى أن سبب ذلك ارتحال البطل هربا من سياسة التجنيد الإجباري بين أمكنة مختلفة بحثًا عن ذاته المسلوبة وأمته الباحثة عن التحرر من العثمانيين، كذلك لأن الرواية التاريخية أكثر ارتباطًا بالأمكنة التي ترصد أحداثًا مختلفة ذات تعالقات تاريخية.

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

1 – الروايتان تنتميان إلى جنس روائي يُعرف بالنوفيلا (الرواية القصيرة) التي تعتمد على تكثيف الأحداث وتعتمد على شخصية محورية واحدة.

2 - البنية السردية تصطنع العلاقات المعتادة بين عناصرها من حيث وجود شخصية محورية تنهض بالعبء الرئيس في فاعلية الأحداث في الرواية من حيث كونها مادةً لا تملك رداً، ودورها الإرادي فيها محدود للغاية.

3 – اتفقت الروايتان في الموضوع وهو سفر بر لك وما كان يرافقه من مشاكل اجتماعية.

4- ثمة استحضار في كلتا الروايتين لتداخل النهج الرحلي في بناء السرد حيث الانتقال بين بيئات مختلفة ومحطات متعددة وخصوصا في رواية العلوي على وجه الخصوص في حين كانت هذه الظاهرة أقل بروزاً في رواية القوابعة.

5 - تنوع الفضاء الروائي من حيث البيئة الصحراويّة والمدنيّة والأماكن المغلقة والمفتوحة والمحبوبة والمكروهة، والضيقة والفسيحة.

6 - كان الفضاء واسعا في رواية القوابعة لأن ميدانها الرئيس هو الصحراء، ولكن فضاءها الاجتماعي محدود.

7 - تنوعت الفضاءات في رواية العلوي فشملت أنواعها كافّة، وإن كانت الأماكن المغلقة الأبرز حيث المنازل والسجون والقطار هي والمكتبة والمتجر وكلها أماكن مغلقة في حين اتحد الفضاء الزماني من خلال الحدث الرئيس المعين تاريخياً.

8 - اللغة السردية في كلتا الروايتين ذات وظيفة جمالية لا تخلو من بعض السمات الشعرية، وهي لغة تمتاز بالانسيابية بعيداً عن المبالغة في اقتناص المجازات البعيدة والتقعر اللفظي.

المصادر والمراجع:

-أبو المعاطي، خير، **الرواية المصرية القصيرة في الربع الأخير من القرن العشرين**، مكتبة بستان المعرفة، القاهرة، مصر، ط1، 2006م.

-الأحمدي، أسماء، **بنيات الحرب والمجاعة والوباء، قراءة في روايتي سفر برلك وقنص**، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد (30)، العدد (1).

-الزريقات، أسماء والفقير سالم، **دلالة المكان في سفر برلك ودروب الفقر لسليمان قوابعة**، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد (47، العدد (108)، 2023م

- زيدان، جرجي، **تراجم مشاهر الشرق في القرن التاسع عشر**، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة، مصر، 2005م.

-سويدان، سامي، **في دلالية القص وشعرية السرد**، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.

-الشبول، كايد، **صورة الأتراك في الرواية الشامية**، مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث، المجلد (7)، العدد (1)، 2021م.

-الشمالي، نضال، **الرواية التاريخية**، عالم الكتب الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م.

-العالم، أمين، **الرواية بين زمنيتها وزمانها**، مجلة فصول، المجلد (12)، العدد (2)، 1993م.

-عباس، إبراهيم، **الرواية المغاربية: الجدلية التاريخية والواقع المعيش: دراسة في بنية المضمون**. دار المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 2000م.

-العلوي، مقبول، **رواية سفربرلك**، دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2019م.

-الغذامي، عبد الله، **الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية: قراءة نقدية لنموذج معاصر**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2006م.

-القوابعة، سليمان، **رواية سفربرلك ودروب الفقر**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2010م.

-القواسمة، آمنة، جماليات الوصف في روايات سليمان القوابعة، جامعة مؤتة ،2014

-المقابلة، شهناز عيسى، توظيف الموروث في رواية (سفر براك دروب الفقر، دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا ،2023.

-لوكاش، جورج، **الرواية التاريخية، ترجمة: صالح جواد كاظم**، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1978م.

.

الهوامش:

(1) الشبول، كايد، **صورة الأتراك في الرواية الشامية**، مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث، المجلد (7)، العدد (1)، 2021م.

(2) الأحمدي، أسماء، **بنيات الحرب والمجاعة والوباء، قراءة في روايتي سفر برلك وقنص**، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد (30)، العدد (1).

(3) الزريقات، أسماء والفقير سالم، **دلالة المكان في سفر برلك ودروب الفقر لسليمان قوابعة**، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد (47، العدد (108)، 2023م

(4) العالم، أمين، **الرواية بين زمنيتها وزمانها**، مجلة فصول، المجلد (12)، العدد (2)، 1993م، ص13.

(5) انظر: عباس، إبراهيم، **الرواية المغاربية: الجدلية التاريخية والواقع المعيش: دراسة في بنية المضمون**. دار المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 2000م، ص212.

(6) لوكاش، جورج، **الرواية التاريخية، ترجمة: صالح جواد كاظم**، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1978م، ص89.

(7) الشمالي، نضال، **الرواية التاريخية**، عالم الكتب الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م، ص33.

(8) انظر: الغذامي، عبد الله، **الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية: قراءة نقدية لنموذج معاصر**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2006م، ص34.

(9) انظر: سويدان، سامي، **في دلالية القص وشعرية السرد**، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص163.

10 القواسمة، آمنة، جماليات الوصف في روايات سليمان القوابعة، جامعة مؤتة ،2014 ص58

11 المقابلة، شهناز عيسى، توظيف الموروث في رواية (سفر براك دروب الفقر، دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا ،2023. ص 45

(12) القوابعة، سليمان، **رواية سفر برلك ودروب الفقر**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2010م، ص54.

(13) القوابعة، سليمان، **رواية سفر برلك ودروب الفقر**، مرجع سابق، ص76.

(14) المرجع السابق، ص25.

15 القواسمة، آمنة، جماليات الوصف في روايات سليمان القوابعة، جامعة مؤتة ،2014 ص 69

(16) القوابعة، سليمان، **رواية سفر برلك ودروب الفقر**، مرجع سابق، ص199.

17 المقابلة، شهناز عيسى، توظيف الموروث في رواية (سفر براك دروب الفقر، دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا ،2023. ص73

(18) القوابعة، سليمان، **رواية سفر برلك ودروب الفقر**، مرجع سابق، ص67.

(19) المرجع السابق، ص25.

(20) العلوي، مقبول، **رواية سفر برلك**، دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2019م، ص25.

(21) المرجع السابق، ص25.

(22) المرجع السابق، ص15.

(23) العلوي، مقبول، **رواية سفر برلك**، مرجع سابق، ص112.

(24) المرجع السابق، ص 82.

(25) العلوي، مقبول، **رواية سفر برلك**، مرجع سابق، ص77.